الخصائص الفنية
لأدب الامام علي عليه السلام

بقلم : الدكتور عناد غزوان

انه ليستحيل على أي مؤرخ أو كاتب ، مهما بلغ من الفطنة والعبقرية ، أن يأتيك حتى فى ألف صفحة بصورة كاملة لعظيم من عيار الامام علي ، ولحقبة حافلة بالاحداث الجسام كالحقبة التي عاشها • فالذى فكّره وتأمله ، وقاله وعمله ذلك العملاق العربي بينه وبين نفسه وربه لما لم تسمعه أذن ، ولم تبصره عين • وهو أكثر بكثير مما عمله بيده او أذاعه بلسانه وقلمه • واذ ذاك فكل صورة نرسمها له هي صورة ناقصة لا محالة • وقصارى ما نرجوه فيها ان تنبض بالحياة ••• بهذه الروح المتواضعة وهذه النظرة الثاقبة الفاحصة ، احاول ان أتحدث عن الخصائص الفنية لادب الامام علي (ع) كما يصوره لنا سفره الادبي الرائع « نهج البلاغة » الذى يقول فيه الشريف الرضي « انه يتضمن من عجائب البلاغة ، وغرائب الفصاحة ، وجواهر العربية ، وثواقب الكلم الدينية والدنيوية ما لا يوجد مجتمعاً فى كلام ، ولا مجموع الاطراف • فى كتاب ، اذ كان أمير المؤمنين عليه السلام مشرع الفصاحة وموردها ، ومنشأ البلاغة ومولدها ، ومنه عليه السلام ظهر مكنونها ، وعنه أخذت قوانينها ، وعلى أمثلته حذا كل قائل خطيب ، وبكلامه استعان كل واعظ بليغ ، ومع ذلك فقد سبق وقصروا ، وتقدم وتأخروا » • فهو نهج الحق بنهجه القويم الذى يرتفع بالانسان وقارئه الى مستوى الفكرة السامية حيث يعيش فى جو فيه تجربة عميقة استحصلها الامام من بحثه وتأملاته ، تلك التجربة التي ننظر اليها معيناً لا ينضب من الخبرة والعبرة والايمان والامل ، فهي

النور الذى نتطلع اليه بشوق ولهفة حيث يكشح ويبدد الدياجير من أمام أبصارنا وأرجلنا ، وبلاغته التي كانت تتكشف جملها « عن وجوه باسرة ، وأنياب كاشرة ، وأرواح فى أشباح النمور ، ومخالب النسور ، قد تحفزت للوثاب ، ثم انقضت للاختلاب . فخلبت القلوب عن هواها ، وأخذت الخواطر دون مرماها ، واغتالت فاسد الاهواء وباطل الآراء . » كما يحلو للاستاذ المرحوم الشيخ محمد عبده ان يصف بلاغة الامام هذه التي قد يتصورها غيره من الملايين التي اعجبت بها وسحرت قلوبها ونورت عقولها ، وكأن عقلا نورانياً قد امتزج فى حروفها ، وسبك من معانيها فكر طموح ، وخالط شداتها ، نظر ومعرفة ، فجدد ثقتنا بانفسنا وبالحياة وأهدافها البعيدة السعيدة ... ولولا هذه الثقة المتجددة بالامام علي وأدبه لتولانا القنوط فى كفاحنا المرير ونضالنا الصلب مع المجهول ... وحاشى لنا ان نستسلم للقنوط واليأس البارد ومعنا فى كل حين صوت العدالة الانسانية مهما قامت بيننا وبينه وهاد سحيقة ، وحقب بعيدة من الزمان والمكان « فلا الزمان بقادر ان يخنق صوته فى آذاننا ولا المكان بماحٍ صورته الرائعة من أذهاننا . »

وأدب الامام مجموعة خطب حماسية وعظية ارشادية فيها تجربة انسان خبر الحياة بقلبه الكبير وعقله الراجح ومجموعة رسائل فنية سياسية ودينية اقتضتها طبيعة الحكم والخلافة الاسلامية التي كان يدير شؤونها يوم اختاره المسلمون خليفة لهم ناطقاً بالحق يرى فى رعيته نفسه الزاهدة فيشاورهم « اذ لا صواب مع ترك المشورة » مؤمناً بواقعية الاسلام التي قامت على أساس الاخاء والمساواة والعدل ، تلك الاركان التي حطمت الطبقية وارستقراطيتها ، والعنصرية وتعاليها ، وحاولت مخلصة خنق العصبية القبلية وما جرته من ويلات وصراع فى حياة العرب والاسلام ديناً ونظاماً سياسياً فهو رجل كغيره من الرجال ، له ما لهم ، وعليه ما عليهم عندما يقول : « انما انا رجل منكم لي ما لكم ، وعليّ ما عليكم » وتسمو هذه الواقعية

في أدبه عندما يرى في السواد الاعظم الحجة والدليل فلا ينطق لسانه الا تعبيراً عن آمالهم وآلامهم ، وفي ذلك التعبير اتحادهم وجمع شملهم عندما يتحدث اليهم قائلا « والزموا السواد الاعظم ، فان يد الله مع الجماعة » . وتتجلى عدالة الامام حاكماً مسؤولا عن رعيته عندما يرى في قلوبهم قلبه الرحيم ، وفي عيونهم المتطلعة الى الحياة ، عينه الثاقبة الساهرة ، وفي مشاعرهم المتوقدة الحساسة ، مشاعره ذات الاثر البعيد في خلق الحاكم المثالي والمواطن الصالح على حد سواء عندما ينادي باعلياء الكلمة وأولياء أمر الامة « يعرفهم مواقع الصواب ، ويبصرهم مواضع الارتياب ، ويحذرهم مزالق الاضطراب ، ويرشدهم الى دقائق السياسة ، ويهديهم طريق الكياسة ، ويرتفع بهم الى منصات الرئاسة . ويصعدهم شرف التدبير ، ويشرف بهم على حسن المصير » عندما يتوهج انفعاله وتنطلق كلمة العدل والحق من لسانه بصداه المؤثر الفصيح قائلا : « قلوب الرعية خزائن راعيها ، فما أودعها من عدلٍ ، أو جوْرٍ وجده فيها » . ولا غرابة في هذه الواقعية فالامام علي كان أعرف الناس من أبناء بلده وقومه بأمراض البيئة الاجتماعية ومن المؤهلين والقادرين على مقاومتها وتشخيص أعراضها ومعالجتها فقد عركه الزمن وعرك الزمن سنوات عديدة كان يقضيها في التأمل والتطلع والتفكير ومراقبة أحداث الحياة ، لذلك كان طالباً لامعاً موهوباً في مدرسة الحياة التي أقام فيها زمناً طويلا فأطلعته على اسرارها وكشفت له عن غثها وسمينها ، فأدرك معنى الحياة مستوحياً من الاسلام فلسفة ذلك المعنى ، وعرف أسباب السعادة والشقاء فيها فأحب ورغب ان يطلع على ذلك ابناء وطنه وعقيدته فنهض الى عمله ولا سلاح له الا الاخلاص في النية والاتكال المطلق على الله ورسوله ، وهكذا حمل الامام اسلامه بين جنبيه يرعاه بقلبه وتأصل اسلامه في أعماق روحه فمضى يستصغر شأن الدنيا بكل فتونها وزينتها وكلما تراءت له مباهجها صدّها بعبارته المأثورة « يا دنيا اليك عني ،

يا دنيا غُرّي غيري » • وواقعية الحياة عند الامام فى خطبه ورسائله نابعة من تقديره للآخرة ، فالآخرة عنده هي الدار •• هي الابد •• وما أهل الدنيا فى شتى العصور والدهور الا سائرون فوق جسر كلما انتهى من عبوره قوم وجدوا انفسهم امام الابدية حيث الجنة او النار الا فلنصغ لحديثه :

« ان المضمار اليوم ، وغداً السباق ، ألا وانكم في أيام أمل ، من ورائه أجل ، فمن قصّر فى أيام أمله قبل حضور أجله ، فقد خاب عمله ، ألا فاعملوا لله فى الرغبة ، كما تعملون له فى الرهبة ، ألا واني لم أر كالجنة نام طالبها • ولم أر كالنار نام هاربها ، ألا وانّ من لم ينفعه الحق ، ضرّه الباطل ، ومن لم يستقم به الهدى ، حاد به الضلال ، ألا وانّ الدنيا عرضٌ حاضر ، يأكل منها البرُّ والفاجر ، وانّ الآخرة وعدٌ صادق ، يحكم فيه ملك قادر ، وان أخوف ما أخاف عليكم اتباع الهوى وطول الامل ، فان اتباع الهوى يصد عن الحق ، وان طول الامل ينسي الآخرة » • تلك هي واقعية الامام القائمة على غنى العقل ومحاربة الجهل والتأكيد على الادب والمشاورة عندما يقول : « لا غنى كالعقل ، ولا فقر كالجهل ، ولا ميراث كالادب ، ولا ظهير كالمشاورة » •

أما وصاياه فهي حلل رائعة من الكلم البليغ الذى يعرف كيف يزين الحكمة فى قلب سامعها ، ويقرب الواقع لناظره دونما تكلف او اصطناع ففي كل كلمة من كلماتها تجربة مسكوبة استخلصها من الستين عاماً التي قضاها ربيب الوحي متأملا متطلعاً ، محاولا بكل ما أوتي من اخلاص وأخلاقية رفيعة ان يرى الاسلام حياة ونظاماً مشرعاً للناس الحق ، هادياً المؤمنين لطريقه الفضلى ، وهداه الامثل ••• تلك هي الخاصية الاولى لادب الامام •

اما اذا نظرنا الى الشكل الفني الذى رسم فيه ذلك الادب بخطبه ورسائله ووصاياه وحكمته وأقواله فان ادب الامام يمتاز فى بعض جوانبه بما يسمى « بظاهرة الايجاز البلاغي » اذ انه من القابلية الفذة والعبقرية الصريحة

ما جعلته يتبوأ المكانة العالية فى البلاغة والبيان وبخاصة عندما يبدع أيما ابداع فى تكثيف المعنى بألفاظ قليلة « يمضين غراً كلها يُتمثل » فاذا كانت الالفاظ أوعية المعاني كما يقول البلاغيون ادركنا ان الايجاز الفني الشائع فى أدب الامام انما هو قدرة خاصة لها دلالتها فى عالم الالفاظ والمعاني على حد سواء • فاطلاعه الواسع وثقافته العميقة واحساسه المرهف جعلت ايجازه يبدو طبيعياً بعيداً عن الصناعة البلاغية المقصودة والمعروفة عند ارباب البديع ومحسناته ، اذ ان الامام كان يسعى دائماً وأبداً الى خلق أدب يمتاز بنوعية فنية بارعة ، أي ان العملية الادبية عنده انما هي عملية خلق فنية ذات نوعية خاصة تحتاج الى قدرة واستعداد وثقافة ، سواء أكانت تلك النوعية خطبة ، رسالة ، وصية ، ام قولا مأثوراً ••• والنوعية التي نستخلصها من أدب الامام انما هي الابداع الفني بمعناه العام والابداع عملية أدبية ذات دلالات وأبعاد عميقة لا تعترف بمال أو جاه أو طبقة أو سلطان ، ذلك لان الاثر الفني الرفيع يقوم عادة على ثلاثة أسس : الاحساس بالشيء ، او ما يسمى بصدق التجربة الشعورية ، ثم الاستعداد الفطري لتصويره او ما يسمى بالموهبة ، وأخيراً سعة ثقافة الاديب وعمق تفكيره وانسانية نزعته ، فاذا اجتمعت هذه العناصر الثلاثة خلقت أثرا فنيا رفيعا •• فنحن لو تصفحنا نهج البلاغة لرأيناه صورة حية من صور الابداع الفني هذه ، ففي كل فقرة من فقراته ، تجد احساس الامام نابضا بها فى هدوئه وغضبه ، وتجد موهبته المصورة لهذا الاحساس تصويرا دقيقا بكلمات حسن سبكها والتزمت مكانها من الجملة وأخيرا عمق التفكير وسعة الثقافة والروح الانسانية الشماء التي تتحلى بها شخصية الامام منذ نعومة اظفارها بكل ما فى هذه الشخصية من حماس وبطولة ، وتقوى وواقعية ، وأخلاقية رفيعة •

اما الظاهرة الاخيرة فى أدب الامام فهى وجود السجع • لا شك ان النثر الفني – واعني به الكلام غير المنظوم الذى يصور به الكاتب الاشياء

والاحداث والاشخاص تصويرا مؤثرا يترك فى نفس سامعه أثرا بليغا ـ وُجد قبل الاسلام وأصاب حظا لا بأس به من الكمال الفني والنضج الادبي ، ولا شك كذلك فى انه كان مؤلفاً من خطب الخطباء والوصايا والمنافرات وسجع الكهان وقد ألف بدوره جانبا فكريا من حضارة العرب فى العصر الجاهلي فكان هذا اللون من التعبير والشعر يعدان الارث الثقافي للعرب وقتئذ • فمؤرخو الادب القديم الذين اهتموا به واستقوا من منابعه ووقفوا على اصوله ومصادره الاولى مجمعون على ان كهان العصر الجاهلي كانوا يلتزمون السجع فيما يصدرون من أحكام ويعلنون من آراء ، ويذيعون من نبوءآت بين العرب فى ذلك الوقت • وقد وجد السجع مكتمل الشخصية والبناء فى القرآن الكريم ـ المصدر الاول لثقافة الامام ـ فهناك السجع القصير الذى يدور حول جمل وكلمات قصيرة ، وهناك السجع الطويل الذى يعتمد على جمل طويلة وهناك السجع المرصع او ما يسمى بسجع السجع ومعناه السجع الذى تزدوج اواسطه او غيرها من اجزائه بالاضافة الى ازدواج فواصله او اتفاقها فى الروي، وهناكالسجع الآخر وهو ان تتكرر فقرة فى تضاعيف الكلام فتكسبه رنة موسيقية خاصة كما هي الحال فى سورة الرحمن التي كانت قد تكررت فيها الآية الكريمة « فبأي آلاء ربكما تكذبان » أكثر من احدى وثلاثين مرة وقد اصطلح على هذا اللون من السجع باسم « السجع المحلى بالعائد » •

فاذا كان القرآن الكريم قد سلك هذه الاساليب السجعية المختلفة وهي أساليب عربية قديمة دون ادنى شك ، فلا غرابة اذا ما حاكى الامام بعضها فى خطبه ورسائله ووصاياه وحكمه ، وهو ربيب الوحي وتلميذ القرآن الكريم • فقد كانت عبقريته تتفتح فيه وهو صبي شعورا عميقاً طاغياً بنصرة الخير وتضحيات أشبه بصنع المعجزات •

وختاما فان خصائص أدب الامام يمكن ايجازها بثلاث هي : الواقعية

فى التعبير ، ثم الابداع الفني فى ايجازه البلاغي وخلق الصورة الادبيـــة الرائعة ، وأخيرا ظاهرة السجع بالاضافة الى الترسل • تلك هي لمحة موجزة عن ادبه الذى صور فيـه اسـلامه وايمـانه نموذجا عظيما مكتمل الشكل والجوهر فى الادب العربي وسيبقى « نهج البلاغة » يشهد ان« عقلا نورانيا لا يشبه خلقا جسدانيا ، فصل عن الموكب الآلهي ، واتصل بالروح الانساني، فخلعه عن غاشيات الطبيعة ، وسما به الى الملكوت الاعلى ، ونما به الى مشهد النور الاجلى ، وسكن به الى غمار جانب التقديس ، بعد استخلاصه من شوائب التلبيس » ••• فاذا كان الاسلام عبادة ونسكاً ، جهادا وبذلا ، ترفعا وزهدا ، فطنة وورعا ، سيادة وتواضعا ، قوة ورحمة ، عدالة وفضلا ، استقامة وعلما ، بساطة وتمكنا ، ولاءا وفهما ، اذا كان الاسلام ذلك كله فان الامام عليا كان أحد النماذج الباهرة والنادرة لهذا الاسلام ••• ؟